المحاضرة الرابعة: الاستشراق وتاريخ الأدب العربي

يقول ادوارد سعيد " فقد كان المستشرقون لعقود قد تحدثوا عن الشرق وترجموا النصوص، وفسروا الحضارات والأديان والسلالات والثقافات والعقليات...وكان المستشرق خبيراً مِـثل ساسي ورينان ووظيفته في المجتمع أن يُفسرا الشرق ويُترجمه لأبناء قومـه؛ وكانت العلاقة بين المستشرق والشرق بصورة أساسيـة تأويلية، فإذا وقـف المستشرق والباحث أمام حضارة أو منجزة ثقافية نائية لا تكاد تفهم، قلّص الإيهام عن طريق الترجمة، والتصور المتعاطف... بِيد أنَّ المستشرق بقي خارج الشرق الذي بقى نائيا عن الغرب."[2]  
  
 بالإضافة إلى أنَّ الغربيين اقتنعوا بأنه لكي يكون هناك تقدما فكرياً وحضارياً واقتصادياً، فلا بد أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه أهل الشرق، حيث بدأوا بإنشاء المدارس والمعاهـد والمراكز لتعلم اللغة العربية "ووصل اهتمامهم بعلـوم العرب أنْ قام "فريدريك الثاني" ملك صقلية في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي و"الفونس"ملك قشتالة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بترجمة العلوم العربية، ثم اقتدى بهم ملك أوربا،وانتهى الأمر بعقد مؤتمـر في "فينا"عام 1311م برئاسة البابا"كليمان الخامس" وقرر في هذا المؤتمر تأسيس خمس مدارس خاصة في باريس، وبولونيان، وأكسفورد، وسلمكنا، والمدينة البابوبة  يدرس فيها العربيـة والعبرانية، والكلدانية،حتى يمكن تخريج مبشرين يستطيعـون تنصير المسلمين واليهـود، أو تشكيكهم في اعتقاداتهم."[3]  
  
 ويتجلى مما قُدم أنَّ الاستشراق قد اِنصبت عنايتُه على التراث الشَّرقي كُلّه– قديمه وحديثه بوجه عام، وعَكف بكُلّ ما أُوتي من وسائل مادية ومعنوية على دراسة نُظـم الإسلام بوجـه خاص، إذْ هُو المِفتاح الأساس لفهم عقلية الشرق وأحوالهم؛ وأيقن أنَّ حقيقة الشَّرق هي دراسة اللغة العربية للتعمق والولوج في حضارة العرب،كما قام بترجمة عدد هائل من الكُتب العربـية إلى اللغات المختلفة، وعني بتحقيقها وكشف عن مخطوطاتـها ونظْم فهارسها، وهذا التحقيق والمعالجة في النُّصوص قام بها أسلافُنا الأقدمون في رواية كُتب الحديث واللغـة والشَّعر والأدب والتاريخ في دقة وأمانة وجهد وطلب، وتَبنى المستشرقون إحياء هذه الفنون والعلوم، ونبغ منهم علماء قاموا بنَّشر نفائس جليلـة من التراث العربي"ولولا عناية المستعمرين بإحـياء آثارنا، لما اِنتهت إلينا تلك الدُرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومُعـجم البلدان، ومُعجم الأدباء، ومُعجم ما اُستعجم، وفتوح البلدان، وفِهرست اِبن النديم، ومفاتيـح العلوم، وطبقات الأطباء، وإخبار الحكماء، والمقدسي الاصطخرى، وابن حوقل، والهمـدانى، وشيخ الربوة، وابن جبير، وابن بطوطـة إلى عشرات من الكتب الجغرافية، والرحـلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، ووقفنا على درجة حضارتنا، ولولا إحياؤهم تاريخ اِبن جبير واِبن الأثير وأبي الفداء واليعقوبى والدينوري والمسعودي وأبى شامة وابن الطقطقى، وحمزة الأصفهاني وأمثالهـم لجهلنا تاريخنا الصحيح في عماية من أمرنا."[4]

**1-أسباب اشتغال المستشرقين بالأدب العربي**   
  
. 1-صلة هذا الأدب بالوحيين (القرآن، السنة)   
  
 أهمية الأدب العربي لدراسة الشخصية العربية وفهمها. 2-  
  
 أثر الأدب العربي في آداب مختلفة ومنها الآداب الأوربية. 3-  
  
 منزلة الأدب العربي المرموقة بين الآداب العالمية. 4-  
  
 2- **المنهج النقدي من منظوراستشراقي:**    
  
يعتبر المنهج النقدي من الأمور التي أحياها المستشرقون في أدبنا المعاصر، وذلك نتيجة أثره في الأدب العربي وإثارته لبعض القضايا الأدبية والفنية، ويبدو هذا التأثير جلياً منذ بدء القرن الحالي حتى الآن، ويعتبر النصف الأول من القرن العشرين بحق- العهد الذهبي-  لهذا الاتصال، إذ أمد المستشـرقون الأدب بمدد وافر من التعليقات والشروحات، وبعثوا حركة التحديث في جمـيع ميادين المعرفة والعلوم. وقد انبرى العرب إليهم وناقشوا آراءهم ... فمثل هذه الأمور لا يمكن أن تمر بدون التأثير والتأثر معاً..  
  
حُكمه على منهج البحث الأدبي  Franz Rosenthal     فقد أصدر المستشرق فرنتز روزنتال والنقد لدى العرب قائلا: "غير أن هذا النقد الذي يستهدف إظهار الحسـن الجيد والقبيح الرديئ لا علاقة له بالنقد العلمي الذي يستهدف التمييز بين الصواب والخطأ فهـذا النوع من النقد هو وحده الذي يـدل على وجود روح النقد الحق."[5]  
  
ومن هنا يجب أن نعترف أن ما ناقشه الاستشراق في أدبنا ولغتنا وفكرنا لشيء يستحق الرجوع إليه وقراءته ومراجعته،  
  
على كل ميادين الفكر الإنساني وقد وضع Renee Descartes   فقد سيطر منهج ديكارت   
  
ديكارت أربع قواعـد رئيسية للمنهج هي: اليقين، التحليل ، التركيب، التحقيق..  
  
 \*اليقين: "ألا أقبل شيئا على أنه حق ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك "مبدأ الشـك الذي يؤدي إلى اليقين.  
  
 \*التحليل: تُقسم المعضلة التي تدرس إلى أجزاء بسيطة على قدر ما تدعو الحاجة إلى حلـها على خير الوجـوه بحيث يجب على المرء أن يرتب وينظم الأشياء التي يريد استكشافها وينـفذ إلى ماهيتها."   
  
 \*التركيب:" أن أسير في أفكاري بنظام بادئاً بأبسط الأمور وأسهلها معرفة كي أتدرج قليلاً حتى أصل إلى معرفة أكثرها تركيباً، بل أن أفـرض ترتيباً بين الأمور التي لا يسبق بعضها الأخـر بالطبع."   
  
 \*التحقيق:" أن أعمـل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجـعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أني لم أغفل شيئا مما يجعل المرء أن يحاول الإحاطة بكل مل يتعلق معـرفته به."[6]  
  
ومن أثار هذا الفكر الفلسفي النقدي على بعض المستشرقين ما نجده عن بعضهم أمثال:  
  
الألماني في "كتابه تاريـخ الأدب Carl Brockelmann  المستشرق الألماني كارل بروكلمان.  
  
في كتابه "تاريخ الآداب العربـية" Carlo Alfoso Nallino العربي"وعند الايطالي كارل نللينو.  
  
في كتابه "تاريخ العرب الأدبي"وعند الروسيR.A.Nicholsonوعند الانجليزي رينو نيكولسن  
  
في كتابه "دراسـات في  Ignaij Julianovic Krackovskij  أغناطيوس كراتشوفسكي  
  
تاريخ الأدب العربي" ... وغيرهم كثير..  
  
 1**- كارل بروكلمان: 1868/1956م**  
رأيه في شعر حسان أنه مبتذل وألفاظه بسيطة وسهلة ويـقول إن سبب انتشار شعر حسان يعود إلى مدح الرسول صلى الله عليه و سلم"وأكثر شعر حسان قريب الألفـاظ إلى حد الابتذال،ولا يصل إلى مستوى جد رفيع، وإنما يرجع فضل انتشاره والـتعلق به في الأزمنة المتأخرة إلى غرضه العظيم الأهمية وهو مد النبي"[7]  
  
  **2- كارل نللينو: 1872-1938م**   
  
يخالف نللينو موقف ابن سلام و ابن خلدون وغيره من الطرح القاضـي بضعف القريحة الشعرية والإبداعية في صـدر الإسلام لأنهم اخرصوا ببيان وبلاغـة القرآن الكريم وانشغالهم بالفتوحات الإسلامية، ويرجع بعض ذلك ـ  فيما يرى ابن سلام ـ إلى انشـغال العرب بعد مجيء الإسلام بالجهـاد، وقد هلك كثير من الناس مما أدى إلى ضياع كثير من الشعر يقول ابن سلام : » فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد، وغزو فارس والـروم ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار راجـعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم كثير «[8] ويقول"إن الآداب العربيـة في ذلك العصر زاهية، وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع قريضهم ولا الخطباء عن سجـع نثرهم"[9] وكان يعترض على قول الأصمعي" إن الشعر نكد بابه الشر فإذا دخلـه الخير لآن وضعف "ويبرر ذلك بأن البيئة الإسلامـية شجعت قول الشعر في الفتوحـات الإسلاميـة والحماسة..  
  
 **3- اغناطيوس كراتشكوفسكي:1909-1972م**   
  
تكلم عن البديع عند العرب وتساءل هل البديع هو إنتاج عربي أم منقول؟ وأراد كـشف المؤثرات الخارجية التي يمكن أن تكون قد أثرت في وضع ابن المعتز علم البديع، وراح يبحث في احتمال أن تكون مؤثرات هندية وفارسية، يقول "من الصـعب إيجاد أثار للنفوذ اليونـاني في نشوء البديع العربي فقد ولد هذا بيئة تختلف عن البيئة التي نشأ فيها البديع اليوناني لكل الاختلاف."[10]  
  
 **4- غوستاف فون غروبناوم 1909-1972م**  
يقول إن الفكر اليوناني رائدا للفكـر العربي في الشعر وفي البلاغة واللفة والمعاجم... فهو لا يريد أن ينسب للعرب أية فضيلة أو ابتكار، بل جميع علوم وتراث وفكر العرب منـحول من تراث اليونان، ويقول: "إن الجهات المختلفة تؤثر أوزانا مختلفة، فتأثير الفرس في الفن المتقن عند شعراء مابين النهرين المتقدمين محتمل جداً، وهناك بحران على الأقل - ويحتمل أن يكون ثلاثة أبحر- قد برعت فيهما هذه المجموعة، هما الرمل والمتقارب، وربما كان الخفيف كذلك ، فهذه تبدو متحولة بما يناسب الأحوال العربية عن الأوزان الفارسية (البهلوية)."[11]

الهوامش:  
- ابن خلدون مقدمة، المكتبة التجارية الكبرى ، ص 554.[1]  
-  سعيد، ادوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ط6، لبنان، دار الأبحاث العربية ،2003،ص 231.[2]  
  
- أحمد، سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، ط1،دار الفكر العربي،1998، ص74-75[3]  
  
- محمد، كرد على، أثر المستعمرين من علماء المشرقيات،ج1،م1927.8،ص24[4]  
  
- فرنز رزنتالل، مناهج العلمار المسلمين في البحث العلمي، مراجعة وليد عرفات، دار الثقافة ، بيروت، 1961،ص142. [5]  
  
- يوسف أكرم، تاريخ الفلسفة الحديثة دار المعارف، 1962، ص96/99.[6]  
  
- المرجع نفسه،ص 153.[7]  
  
ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود شاكر،دار المعارف، القاهرة،1952، ج1/ 26 .  -[8]  
  
-   كارل نللينو، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف ، مصر،1970.ص 104. [9]  
  
- أغناطيوس كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، موسكو، 1965، ص 12.[10]  
  
11-غوستاف فون غروبناوم ،دارسات في الأدب العربي، تر: إحسان عباس ، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1962، ص 122/1231